



## التأويل السياقي - النصي للاستعارة النفرية\*

Contextual-Textual Interpretation of  
al-Nifari's metaphors

فريدة مولى\*

جامعة عبد الرحمان ميرة-بجاية-الجزائر fmoulla@yahoo.fr

تاريخ النشر:

2021-06-02

تاريخ القبول:

2021-05-15

تاريخ الإرسال:

2021-04-25

ملخص: تتضح قيمة وأهمية أي قول استعاري - حسب أومبرتو إيكو - في السياق الذي يستعمل فيه، فالسياق في نظره يقدم دائماً استعاراته على أنها بكر، إذ هناك دائماً سياق قادر أن يقدم استعارة منطقة على أنها جديدة مبتكرة، لذلك وضع خمس خطوات أساسية للتأويل السياقي النصي للاستعارة أتبعها في تحليلاته، اعتماداً على هذه الخطوات، قمنا بتحليل نماذج من استعارات النفرية ضمن سياقها العام، وهو النصوص الصوفية السابقة عليه، لأنه يشترك مع غيره من المتصوفة في الحديث عن العالم النوراني، وعن المعرفة التي يتلقاها بعد وصوله إلى الحضرة الإلهية، وهو يشترك معهم أيضاً في المصطلحات والرموز الموظفة لترجمة رؤاهم الكشفية، وقد خلصنا بعد التحليل إلى أن استعارات النفرية استعارات مفتوحة تجمع بين عوالم متباينة وتؤسس لعلاقات جديدة بين عناصر الكون المتباعدة، وقد كشف التحليل أنه كلما تعمقنا في الموسوعة الصوفية كلما أدرنا التداخل القائم بين الأشياء، بين المعاني، بين عناصر الكون ومفاهيمه. واكتشفنا أيضاً أشكال التشابه والتماثل حتى بين أشد الأمور تبايناً واختلافاً.

كلمات مفتاحية: السياق؛ الاستعارة؛ التأويل؛ الموسوعة؛ الصوفية.

**Abstract:** The value and importance of any metaphor - according to Umberto Eco - becomes clear in the context in which it is used. In his view, the context always presents its metaphors as a virgin, as there is always a context capable of presenting an extinguished metaphor as an innovative one. That is why he set five basic steps for the textual contextual interpretation of the metaphor. He followed in his analysis. We

\* المؤلف المرسل

analysed examples of (al-Nifari) the metaphors within their general context, which is the Sufi texts preceding it because he shares with other Sufis in talking about the luminous world, and about the knowledge he receives after reaching the Divine Presence, and he also shares with them the terminology and symbols used to translate their scouting visions. After the analysis. We concluded that al-Nifari's metaphors are open metaphors that combine disparate worlds and establish new relationships between the distant elements of the universe. In addition, the analysis revealed that the more we delve into the Sufi encyclopedia, the more we realise the existence between things, meanings, between the elements and concepts of the universe. We also found similarities between even the most contrasting and different things.

**Keywords:** Context; metaphor; interpretation; encyclopedia; Sufism.

**1-المقدمة:** إن أيّ قول استعاري يمكن صياغته . حسب أميرتو إيكو. في استعارة مفهومية مؤلفة من طرفين، أو معنمين (ناقل وحامل). فإذا كانت الاستعارة في الأصل تعتمد إدخال المستعار له (الحامل) في جنس المستعار منه (الناقل)، فإنها في الوقت نفسه تجعل الطرفين يتفاعلا ويندخالان. ولكن عملية خلق التفاعل بينهما تسبقها عملية إدراك الصفات الجوهرية، أو الذاتية واللوازم والأعراض، أي المقومات، وهي ما يصطلح عليها المكونات الدلالية أو المعينمات، وقد وضع "أميرتو إيكو" تمثيلاً أو رسماً مكوّنياً انطلاقاً من العلل الأرسطية الأربعة (الفعل، الصورة، المادة، الغاية)، واعتبر أن كل اسم (س) يمكن أن يحلّ تبعاً لذلك، ويمكن لتمثيل من هذا القبيل في نظره أن يؤدي إلى العلاقات القاموسية الأكثر تنوعاً، إذ لا ينسخ إلا خاصيات موسوعية، ومشجرات فورفوربية كثيرة التنوع، وتتأسس الآلية الاستعارية . حسب . على دلالة مكوّنية غير متناهية، لها حجم موسوعة، ولا شك أن دلالة في شكل موسوعة أكثر فائدة من دلالة في شكل قاموس، وقد وضع "إيكو" خمس خطوات للتأويل السياقي النصي للاستعارة، والتي من خلالها نحدد أوجه التشابه والتعارض بين الطرفين أو المعنمين، وكأول خطوة استكشافية، علينا أن نبنى تمثيلاً مكوّنياً أولياً للمعنم المستعار منه، ويجب أن يمحظ هذا التمثيل فقط تلك الخاصيات التي يوعز سياق النص أنها مهمة، وأن



يُخَدَّرُ الخاصيات الأخرى. وتمكّنتنا هذه الخطوات حسبه من اكتشاف وظيفة الاستعارة المعرفية إلى جانب وظيفتها التزيينية حيث تقدم لنا المعرفة في طبق لغوي وتتيح خلق علاقات جديدة بين العناصر المتباعدة، كما تتّمي إحساسنا بالأشياء وتجعلنا نكتشف ما هو غير واضح للعيان، لنرى الواقع برؤية جديدة وبعيد جديد. بإتباع خطوات إيكو في التحليل المرتكز على مفهوم الموسوعة والمنفتح على المعينمات الناتجة من السياق، سنحاول تحليل نماذج من الاستعارات الواردة في خطاب المتصوف "محمد بن عبد الجبار النّفري" لنبين دور الموسوعة الصوفية في توسيع المعاني وإدراك التداخل القائم بين أشدّ الأمور تباعدا واختلافا، ونكشف أيضا الارتباط السياقي للاستعارة النّفرية وانفتاحها، وقدرتها على ابتكار المعاني وتوليد الدلالات وتقديم الجديد البكر بخلق علاقات دلالية جديدة تجمع بين طرفيها المتباينين ظاهريا.

## 2- دور السياق في السيورة التأويلية

**1.2 التحديد الأرسطي والشجرة الفورفورية:** انتقد "أومبرتو إيكو" الفكرة القائلة بأنّ العلامة شيء يقوم مقام شيء آخر، بمعنى أنّ العلامة قطعة بديلة لا تملك غير مدلول الشيء الذي تشير إليه، وبينّ أنّه حتّى تلك العلامات التي تبدو في الظاهر أحادية المعنى أو فقيرة المعنى بالنسبة إلى بعض الأشخاص تصبح ثرية بالمعاني وقابلة لتشتى التأويلات بالنسبة إلى شخص آخر يمتلك دراية موسوعية مختلفة وأكثر اتّساعا، كما أكّد على أنّ النظام اللغوي يتميز عن باقي الأنظمة السيميائية الأخرى بقدرته على وصف هذه الأنظمة، وبأته النظام الذي يُوفر حصادا أوفر وأثرى على مستوى توليد الدلالة و إمكانيات التأويل، وقد وجّه نقدا لمختلف الشجرات التي وُضعت لتحديد المفاهيم أو مدلولات الألفاظ بدءًا بشجرة فورفوريوس\*\* التي اعتبرها عاجزة عن تلبية رغبتنا في الإمام بالعلاقة بين اللفظ ومدلوله إماما كليا، وكذا كبح جماح التأويل وتقبيده وكشف سرّ توليد الدلالة كشفا تاما ونهائيا<sup>(1)</sup>، فحتى وإن اعترف أغلب الباحثين بجدوى

التحليل بالمقومات أو المكونات الذي أساسه التحديد الأرسطي والشجرة الفورفورية، إلا أن هناك من وجّه لها بعض الانتقادات نظرا إلى قصور التحديد الأرسطي، والفورفوري ولا شموليته في تعريف الأشياء تعريفاً يجعل الإنسان يدرك ماهيتها، لذلك قلل . إيكو. من وظيفة الشجرة الفورفورية، لأن كل مقوم فيها يحتاج إلى تحليل آخر، وهكذا دواليك، مما يؤدي إلى التسلسل، كم أنها تقوم على نظام دلالي قاموسي ينظر إلى المعاني" كمحولات سكنوية محايدة للموضوع لا كخصائص تفاعلية تنتج من تعدد السياقات ودينامية المعاني واختلاف الأنظمة الإدراكية للأفراد والجماعات"<sup>(2)</sup> إلى جانب قوله بعدم انفتاح هذا التحليل على المقومات أو المعينمات الناتجة من السياق، وكل ذلك جعله يدرج مفهوما مقابلا وبديلا لمفهوم القاموس وهو مفهوم الموسوعة الذي عوّل عليه كثيرا في تحليلاته، بعد أن ميّز بين المفهومين "الموسوعة" والقاموس"<sup>(3)</sup> واعتبرهما نموذجين متضادين نرتكز عليهما لتمثيل محتويات التعابير المختلفة، وهما عبارة عن مخزون معرفي يتم استحضاره بطريقة تلقائية أو غير تلقائية أثناء عمليات التواصل البسيطة والمعقدة، على أن القاموس يقتصر في تمثيله لهذه المعرفة على الجانب اللغوي بينما تتعدى الموسوعة ذلك لتضع في الحسبان معرفتنا بالعالم، إضافة إلى اعتباره القاموس نموذجا عاجزا عن الإحاطة بالدلالات السياقية وعن التمييز بين المعلومات اللغوية وبين معرفة العالم، وتجاوزا لهذا النقص اعتبر مفهوم الموسوعة المتسم بالاتساع بديلا يسد عجز المفهوم الأول المتسم بالمحدودية. وقد أكد "إيكو" في مختلف أعماله على ضرورة الاعتماد على السياق في التحليل، وسنده في ذلك السيرورة التأويلية اللامنتهية التي تتجم عنه، إذ أن لكل مفردة في نظره "نص متوقع أو محتمل، وأي نص هو تمطيط لمفردة واحدة أو أكثر"<sup>(4)</sup> فأهمية السياق -في نظره- تكمن في توضيح الدلالة وتحديد المعنى وفتح آفاق التأويل، كما يساعد على تحويل الاستعارة المغلقة إلى استعارة مفتوحة، فهناك دائما "سياق قادر أن يقدم مجازًا شائعًا مسننا أو استعارة



منطفئة على أُنْها جديدة" (5) وبضيف شارحا دوره في نقل الاستعارة من جوهر سيميائي إلى آخر " توجد حركات انتقال طارئة يصبح فيها ما هو استعارة منطفئة في الجوهر (س) استعارة مبدعة في الجوهر (ي)" (6). إن أي تمثيل موسوعي يعتمد على مبدأ التأويل غير المتناهي يمكنه أن يفسر مفهوم التشابه بين الخاصيات، ويعني . إيكو . بالتشابه بين خاصيتين أو معنمين أنه في نظام ما للمضمون تقع تسمية ما بين الخاصيتين من خلال المؤول، سواء كان لفظياً أو لا ويقطع النظر عن أن تكون الأشياء التي عادة ما يعينها هذا المؤول تمثل مشابهاً مدركة (7). وقد وضع تمثيلاً أو رسماً مكوّناً انطلاقاً من العلل الأرسطية الأربعة (الفعل، الصورة، المادة، الغاية) واعتبر أن كل اسم (س) يمكن أن يحلّ تبعاً لذلك إلى:

غ	ف	م	ش ← (س)
↓	↓	↓	↓
لأي شيء يصلح (س)	مما صنع (س)	فعل إنتاجي من ينتج	شكل
(وظيفته وغايته)		س. فاعل	وصورة

ويمكن لتمثيل من هذا القبيل في نظره أن يؤدي إلى العلاقات القاموسية الأكثر تنوعاً، إذ لا ينسخ إلا خاصيات موسوعية، ومشجرات فورفرورية كثيرة التنوع. فلو أردنا أن نعتبر (س) من زاوية الغاية، فإنه سينتمي إلى صنف جميع الخاصيات (خ) التي لها الوظيفة نفسها. وإذا اعتبرناه من زاوية الشكل أو الصورة، فإنه سينتمي إلى جميع الخاصيات التي لها الشكل نفسه، ويمكن أن تتم العملية عينها من زاوية الخاصيات (ش)، (م)، (ف) (8).

**2.2 قواعد التأويل السياقي للنصي للاستعارة:** وضع "إيكو" خمس قواعد أو خطوات للتأويل السياقي للنصي للاستعارة، والتي من خلالها نحدد أوجه التشابه والتعارض بين الطرفين، وهي:

1. كأول خطوة استكشافية، علينا أن نبني تمثيلاً مكُونياً أولياً للمعنى المستعار منه، ويجب أن يَمِغْطُ هذا التمثيل فقط تلك الخاصيات التي يوعز سياق النص أنها مهمة، وأن يُخَدَّرَ الخاصيات الأخرى.

2. يجب أن نتعرف ضمن الموسوعة المسلّم بها موضعياً للغرض معنماً آخر، يملك معينماً أو أكثر من التي يملكها المعنى الناقل. ويبرز في الوقت نفسه معينمات أخرى جديرة بالاعتبار، وسيصبح هذا المعنى مرشحاً للقيام بدور المعنى المستعار له (الحامل)، وإذا حصلت منافسة من أكثر من معنى للقيام بدور (الحامل) أو المستعار له، علينا القيام بمحاولة استكشافية أخرى اعتماداً على إشارات من سياق النص.

3. علينا أن نختار واحدة أو أكثر من هذه الخاصيات أو المعينمات المختلفة، لنركب عليها شجرة فورفوربية بطريقة تجعل هذه الأزواج المتعارضة تتلاقى في عقدة عليا.

4. يبرز الحامل أو الناقل علاقة جديرة بالاهتمام عندما تتلاقى خاصياتها المختلفة، أو معينماتهما في عقدة على درجة عالية جداً عند المقارنة في شجرة فورفوربية، ولا يمكن تقييم التشابهات والاختلافات إلا بالاتفاق مع النجاح السياقي النصي المحتمل للاستعارة.

5. يجب أن نتحقق إن كان بالإمكان اعتماداً على الاستعارة المفترضة، أن نحدد علاقات دلالية جديدة بطريقة تُثري بها بصفة لاحقة القوة الإدراكية للمجاز<sup>(9)</sup>

**2 التمثيل الموسوعي للاستعارة النظرية:** باتّباع خطوات "إيكو" في التأويل، سنحلل نماذج من الاستعارات "النظرية" ضمن سياقها العام، لأن السياق الذي أنشأ فيه "النقري" نصوصه، هو حجر الزاوية في عملية التأويل، وهذا السياق هو النصوص



الصوفية السابقة عليه، فما هو واضح في خطابه أنه يشترك مع غيره من المتصوفة في الحديث عن العالم النوراني، ومقامات وأحوال الطريق، وعن المعرفة التي يتلقاها بعد وصوله إلى الحضرة الإلهية، وهو يشترك معهم أيضاً في المصطلحات والرموز الموظفة لترجمة رؤاهم الكشفية، لذلك وجب علينا قبل التحليل العودة إلى معاجم المصطلحات الصوفية قصد الإبانة عن معاني الكلمات ودلالاتها الصوفية، بعيداً عن دلالاتها المعجمية المتعارف عليها في لغة الاستعمال اليومي.

وردت في خطابه نماذج من الاستعارات المفتوحة . بتعبير إيكو . تفتح أفقاً رحباً على التأويل، وأكثر هذه الاستعارات ترتبط بمجموعة من الكلمات المفاتيح، وهي كلمات جوهرية تمثل مقولات راسخة في فكره الصوفي، ويحتاج الكشف عن معانيها إلى التعمق والتبصر برموز الصوفية، ومصطلحاتهم. ومن بين هذه الكلمات «الحرف، الحجاب، الوقفة، السوى، القلب، البيت، البحر...»، وسنقف عند النماذج الاستعارية التي يتواتر فيها استخدام كلمة "حرف".

إن كلمة "حرف" تكتسب من خلال السياقات التي ترد فيها دلالات متعددة، يقول في المخاطبة الثالثة والعشرين: «يا عبد الحرف خزانتي، فمن دخلها فقد حمل أمانتي، فمن حمل لي لا لنفسه فكرامتي، وإن حمل لي ولنفسه فمطالبتني، وإن حمل لنفسه ولا لي فبرئ من ذمتي»<sup>(10)</sup>.

ويقول في المخاطبة الثالثة والخمسين «يا عبد الحروف كلها مرضي إلا الألف، أما ترى كل حرف مائل، أما ترى الألف قائماً غير مائل، إنما المرض الميل، وإنما الميل للسقام فلا تمل»<sup>(11)</sup>.

ويقول في المخاطبة الثانية عشرة: «يا عبد أخرج من الحرف نتج من السحر»<sup>(12)</sup>. ويقول في الموقف الخامس والخمسين: «وقال لي: الحرف حجاب، وكلية الحرف حجاب، وفرعية الحرف حجاب»<sup>(13)</sup>.

تحدد الاستعارة الأولى . الحرف خزانتي . على الفور وبصفة سياقية المستعار منه (الناقل)، وهو الخزانة، والمستعار له (الحامل) وهو الحرف، ولنرفع اللبس عن القول "الحرف خزانة". في البداية من الضرورة معرفة ما هو الحرف؟ وما هي الخزانة؟ لذلك علينا أن نبرز المعينمات التي تساعدنا على التحليل، ونهمل التي لن تسهم في تقدم التحليل، وتبعاً لقواعد . إيكو. سنبنى تمثيلاً مكوّناً أولاً للمعنى المستعار منه (خزانة).

غ	م	ف	خزانة: ش
↓	↓	↓	↓
الوظيفة والغائية	ممّ	فاعل الإنتاج	(شكل)
احتواء الأشياء	يصنع(خشب)	(ثقافة)	مستطيل
أو تخزينها	حديد		مربع
الحفاظ عليها	الخ		شكل مغلق

كما يتضح في هذه المرحلة الأولى من التحليل، لا نعرف ما هي المعينمات (المكوّنات الدلالية) التي يجب اعتبارها حاضرة سياقياً، وتسمح الموسوعة أن نملاً بصفة لانتهائية هذا التمثيل، إلا أن السياق هنا يشير أيضاً إلى كلمة " حرف "، فمن وجهة نظر الحقيقة، فالعبارة ملتبسة، أو فيها نوع من المنافرة الدلالية، أو المجافاة، فلا يمكن للحروف أن تكون خزانة، أو أن تكون الخزانة حرفاً، وتبعاً لذلك يجب أن نبنى رسماً أو تمثيلاً مكوّناً للحرف.





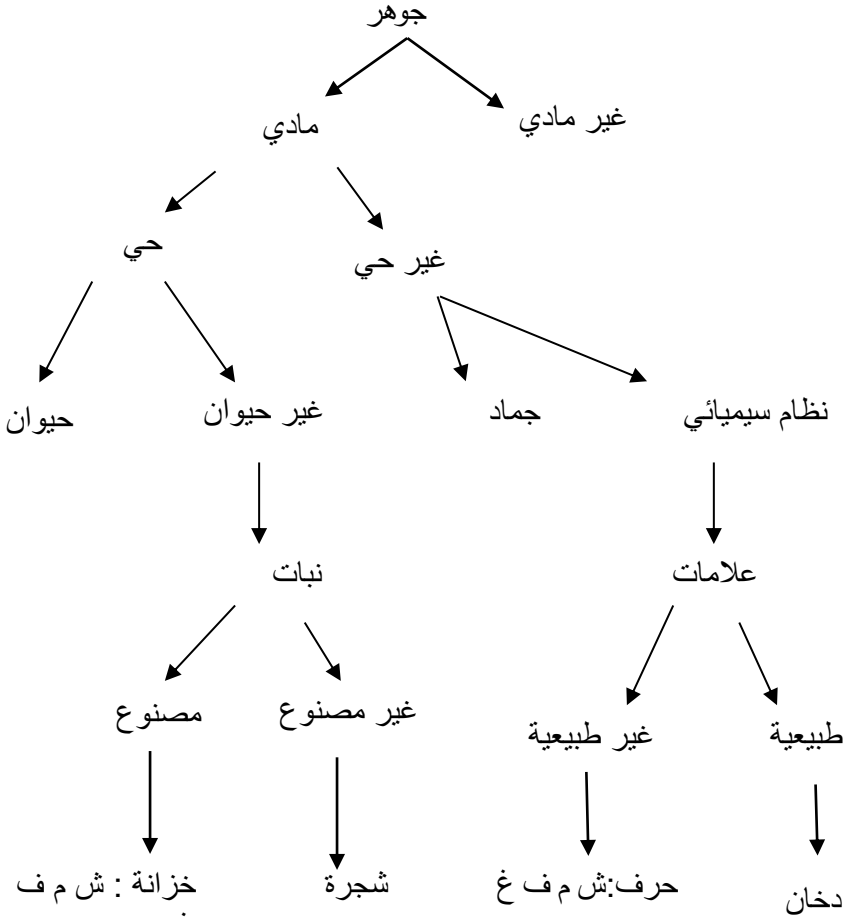
الحرف ← ش	ف	م	غ
↓	↓	↓	↓
رسوم	ثقافة	حبر	الإشارة إلى
علامات		رمل	المسميات
خطوط		خشب	(الأشياء)
		الخ	

تجدر الإشارة هنا إلى أننا اعتبرنا " الحرف " مادة أو شكلاً استناداً إلى قول "إيكو" «أننا نترجم ما نحس به وما تدرکه حواسنا إلى كلمات، سواء كانت إصداراً لأصوات، أو رسوماً لحروف لتبليغها إلى الغير»<sup>(14)</sup>. فالصور المدركة سواء كانت مدركات عقلية أو مدركات حسية أو متخيلات نتحصل عليها بطرق ثلاث كما ذكر " إخوان الصفا "، إحداهما طريق الحواس، والأخرى طريق البرهان، والأخيرة طريق الرؤية والفكر<sup>(15)</sup>. والحروف من المحسوسات، لأننا ندرکہا بالسمع كأصوات، وبالبصر واللمس كرسوم مكتوبة أو منقوشة.

أمّا عن الفعل الإنتاجي، أو الفاعل المنتج فهي الثقافة، والإنسان على وجه التحديد، لأن اللغة اللفظية نظام من العلامات المصنوعة والاعتباطية، خلافاً للعلامات الطبيعية كالحسابة التي تنذر بالمطر، والدخان الذي يشير إلى وجود النار<sup>(16)</sup>. فالإنسان هو الذي وضع أو صنع هذه العلامات ليعبر عن نفسه وعن العالم المحيط به، من خلالها لهدف تحقيق عملية التواصل.

والحرف من حيث هو مادة يمكن أن يكون أصواتاً، أو رسوماً وغيرها من الإمكانيات، ومن حيث وظيفته أو الغاية منه، فهو يكون الكلمة، والكلمة تشير إلى شيء من أشياء الكون.

لنجمع الحرف والخزانة في شجرة فورفرورية تعتبر البنى المفصلية:



نجد في هذه " الشجرة " أن الحرف والخزانة يشتركان في العقدة العليا " مادة " ويتميزان في العقد السفلية، في البنى المفصلية "حية" مقابل البنى المفصلية "غير الحية"، ولكنهما يشتركان أيضاً في بعض المعينات المتعلقة بالفاعل الإنتاجي، وفي الوظيفة والشكل بصورة نسبية. لكن هذا لا يزيل اللبس، ولا يكشف عن وجه الشبه



الحقيقي والجامع، لذلك علينا أن نوسّع في مجال الموسوعة، ونحاول أن نجيب عن مجموعة من الأسئلة: ما الذي يوضع في الخزانة؟ وما فائدة ما تحمل أو نخزن؟ ولماذا توضع فيها هذه الأشياء؟ بمعنى الغاية من ذلك؟ وهل لها دلالة مغايرة عند المتصوفة؟ وما معنى "الحرف"؟ وما وظيفته بالتحديد في العرف الصوفي، وعند "النّفري" بالتحديد؟ للإجابة عن هذه الأسئلة، وجبت الاستعانة ببعض المعاجم المتخصصة. علينا أن نعرف بطبيعة الحال عندما نقارن "الحرف" بـ"الخزانة" أن الحرف كما ورد في "مختار الصحاح"، لعبد القادر الرازي" يأخذ دلالة [الحد . الطرف . النقص . الميل]. يقول الرازي: «حرف كل شيء طرفه وشفيره وحدّه، ويقال رجل محارف أي منقوص الحظ، ويقال انحرف عنه وتحرفّ واحرورف أي مال وعدل»<sup>(17)</sup>. ويأخذ الدلالة نفسها عند الزمخشري<sup>(18)</sup>.

والحد في "تعريفات" محمد الجرجاني: «قول دار على ماهية الشيء، وعن أهل الله الفصل بينك وبين مولاك كتعبك وانحصارك في الزمان والمكان المحسوس، والحروف هي الحقائق البسيطة من الأعيان عند مشايخ الصوفية، والحروف العاليات هي الشؤون الذاتية الكائنة في غيب الغيوب كالشجرة في النواة»<sup>(19)</sup>.

ومن هنا نلج باب الدلالة الصوفية للحرف والحروف، فالحرف باصطلاحهم «يدل على الاسم والاسم ليس هو اللفظ بل ذات المسمى باعتباره صفة وجودية أو عدمية، والحروف هي الحقائق البسيطة من الأعيان والموجودات الحاجبية كالعقل والنفس، والحروف العاليات هي الشؤون الذاتية الكامنة في غيب الغيوب كالشجرة في النواة، أي الأصول الذاتية المخفية، يقال كَمَنَ الشيء كُموناً أي اختفى، والشؤون جمع شأن وهو أصل الشيء»<sup>(20)</sup>.

إن أخذ الحرف في اصطلاح الصوفية دلالة " ماهية الشيء " أو المسمى، وما يدل على ذاته، ويأخذ دلالة الشيء المحسوس على اعتبار الحروف حقائق بسيطة من

المحسوسات والموجودات الحاجبية كالعقل والنفس، وهي أيضاً أي . هذه الحقائق . أصول الأشياء الكامنة أو المخفية في غيب وبذلك تتجلى دلالة أو وظيفة الإخفاء وهو ما تهماً بالدرجة الأولى لأنها الوظيفة المشتركة مع وظيفة الخزانة.

أما عن دلالة "خزانة"، فقد وردت هذه الكلمة في "مختار الصحاح" للرازي بمعنى الإخفاء والكتمان، خزن المال جعله خزانة، وخزن السر كتمه<sup>(21)</sup>. وتتخذ الكلمة دلالة أعمق تتعلق بالحفاظ على سلامة الشيء المخزن في كتاب "أساس البلاغة"، إذ يقول الزمخشري: «خزن المال في الخزانة أحرزه، ومن المجاز: أطلب خزائن رحمة الله تعالى، وأخزن لسانك وسرك واجعله في خزانتك أي في قلبك إذا لقتته علماً أو أودعته سرّاً، وفي حكمة لقمان: إذا كان خازنك حفيظاً وخزانتك أمينة رشدت في دنياك وأخرتك، إلى جانب دلالة التغير والتحول التي تأخذها الكلمة: خَزَنَ وَخَزَنَ وَخَزَنَ اللحم إذا تغير»<sup>(22)</sup>.

ولعل دلالة التغير هي الأقرب إلى الاستعمال الصوفي إذا اعتبرنا "القلب" خزانة، ومن صفات القلب القلب والتغير، إلى جانب وظائف: الاحتواء، الإخفاء، الحفاظ على الشيء. ويتبين من خلال هذه التعريفات التي وسّعت مجال الموسوعة، أنّ "الحرف" و"الخزانة" يتماثلان أكثر من حيث الوظيفة. فمن الواضح أنه من بين غايات ووظائف الخزانة الاحتواء والحفاظ على سلامة ما تحوي، ومن وظائف ما تحويه الخزانة أيضاً الحفاظ على سلامة الإنسان، فإن كانت ملابس فهي تستره وتقيه من الحر والبرد، وتحميه من التأثيرات الخارجية أيضاً، كما أنها تزيّنه وتُظهره في أحسن صورة. والخزانة التي تحوي أو تخزن هذه الملابس هي بذاتها تحميها من التلف والوسخ والضياع، والثياب تكون فيها مرتّبة ومطوية بشكل منظم وسوي، تسهل عملية العثور على أي لباس نرغب فيه. وبالمقابل نجد "الحرف" في العرف الصوفي وعند "النّفري" بالتحديد يحتوي على المعارف والعلوم والمعاني التي تفيد الإنسان في دنياه وتحميه من



الجهل ومن المؤثرات الخارجية، ويشير إلى المسميات أو أشياء الوجود التي تسير وفق نظام واحد وتخضع لقوانين ثابتة، هذا النظام وهذه القوانين التي يدركها الإنسان العالم بعقله ويكتشفها بجهد وسعيه الدؤوب من أجل إزالة حجب الجهل، وكشف أسرار الله في خلقه وكونه ولا يكتمل تحليل هذا القول الاستعاري "الحرف خزنة" إلا إذا عدنا إلى سياق النص وعرفنا عن أية خزنة يتكلم. يقول: « وقال لي الحرف خزنتي، فمن دخلها فقد حمل أمانتي » هي إذن خزنة من خزائن الله التي تحمل أسرار الكونية، ومن دخل هذه الخزنة فقد حمل الأمانة وحفظ السر، سر من أسرار الإله التي لا يبثها إلا في من كان أهلاً لها. ويؤكد ذلك قوله في المخاطبة الثالثة والخمسين "الحرف خزنة سري"<sup>(23)</sup>. هذه الأسرار الإلهية المبنوثة في الكون لا يدركها إلا العالم والعارف، والعارف أرقى مرتبة من العالم، لأن المعرفة التي يدركها تتعلق بالحقائق الكلية، بالغيبيات، بينما ترتبط العلوم التي يدركها العالم بالمسائل الجزئية في الكون، بالماديات، بأشياء الكون المتعددة.

إن الحرف الذي يشير إلى هذه المسميات أو الأشياء، في عرف الصوفية، وفي عرف النَّفري بالذات، يخزن أسرار الله العلوم والمعارف، هذه العلوم التي تُكسب الإنسان معلومات تيسر له السيطرة على الكون، وتصبح له دليلاً في عمله الدنيوي، ويتخلص بها من الجهل ليتعرف على بعض أسرار الله في كونه الفسيح، الذي يسير وفق قوانين ثابتة وواحدة، والذي تسبح فيه الأشياء المخلوقة بنظام ودقة وخطة واحدة.

ولعل ارتباط الحرف عند النَّفري بالماديات هو الذي جعله في كل مناسبة يدعو إلى ضرورة الخروج من الحرف، ومما يشير إليه أي الحرف والمحروف، ففي فلسفته يجب الخروج من الحرف ومن كل ما يحتوي عليه الحرف، من العلوم والمعارف والخواطر والعبادات والمعاني، وبخروج السالك . سالك الطريق إلى الله . من الحرف والمحروف يخلو قلبه من كل ذلك، ويتطهر ليتجلى الله عليه وتأتي مرحلة الرؤية ثم بعدها المجالسة والصحبة والمعية مع المطلق، والوصول إلى هذه المرحلة لا يكون

بتحصيل العلم ولا بالمعرفة، إنما بالوقفه أمام الله، لأن الوقفة عنده تجاوز لمستوى الإدراك البشري وتجاوز لوسائل المعارف كلها. والواقف في الحضرة الإلهية يعيش في اليقين المطلق، وينتفي لديه الشك الذي كان يمارسه العقل في مرحلتي العلم والمعرفة. يقول: « ليس في الوقفة ثبت ولا محو ولا قول ولا فعل ولا علم ولا جهل »<sup>(24)</sup>، يعني أن الثابت صور، والأقوال صور، والأفعال صور والعلوم والجهالات كلها صور، والوقفه عنده تمحو الصور وتقني الرسوم، ذلك لأن الواقف خارج عن الحرف والمحروف، فالحرف عنده إذن يعني كل ذي صورة سواء كانت الصورة روحانية أو جسمانية، فكل ما سوى الله تعالى حرف، وإذا خرج السالك من الحرفية التي هي صورة فقد خرج عن الظواهر، ومنها المسميات والأسماء، ومن حصل له ذلك حظي بمشاهدة الحق وكان أهلاً لتلقي أسراره وحفظ أماناته، بل كان من المقربين. يقول في موقف التقرير: « وقال لي: إذا خرجت من الحرف خرجت من الأسماء وإذا خرجت من الأسماء خرجت من المسميات، وإذا خرجت من المسميات خرجت عن كل ما بدأ، وإذا خرجت عن كل ما بدأ فُلتَ فسمعتُ ودعوتَ فأجبتُ »<sup>(25)</sup>.

من شروط الصحة والمعية واستجابة الدعوة والسماع عن السالك الخروج من الحرف والمحروف، والخارج من الحرف هو الخارج عن نفسه، وهو الذي يحوز العلم الرياني، ويفوز بمرتبة أهل الحضرة. وقد جاء في موقف " المحضر والحرف " أن الحضرة من شأنها أن تحرق الحرف، أي أنها تمحو الكلام محواً تاماً، وأن أهل الحضرة هم أولئك الذين يخرجون من الحروف ويعبرون منها إلى سواها، ولكن دون أن يقفوا فيها، كما جاء في هذا الموقف نفسه أن الواصلين إلى الله لا يفهمون عن حرف يخاطبهم ولا يستقرون في حرف يتخذونه مكاناً لهم، أو موضع إقامتهم. يقول:

«وقال لي الحضرة تحرق الحرف وفي الحرف الجهل والعلم ففي العلم الدنيا والآخرة، وفي الجهل مطلع الدنيا والآخرة، والمطلع مبلغ كل ظاهر وباطن، والمبلغ محو في باد



من بوادي الحضرة. وقال لي الحرف لا يلج الحضرة وأهل الحضرة يعبرون الحرف ولا يفقون فيه، وقال لي أهل الحضرة، وقال لي الخارجون عن أنفسهم هم الخارجون عن الحرف»<sup>(26)</sup>.

إن العلم الرباني كما أشار إليه في أكثر من موضع هو العرفان باصطلاح الصوفية، وهو من العلوم اللدنية التي تعجز اللغة عن كشفها، ويعجز الحرف أيضاً عن ذلك لأنه من عناصرها، بل أن الوصول إلى هذا العلم لا يكون إلا بالعبور من الظاهر الحسي المتعين إلى الباطن الروحي العميق، وبالخروج من اللغة والحرف والموجودات، وعالم الحس: « وقال لي العلم الذي ضده الجهل علم الحرف، والجهل الذي ضده العلم جهل الحرف فأخرج من الحرف تعلم علماً لا ضد له، وهو الرباني وتحمل جهلاً لا ضد له وهو اليقين الحقيقي وقال لي: إذا علمت علماً لا ضد له، وجعلت جهلاً لا ضد له فلست من الأرض ولا من السماء»<sup>(27)</sup>.

تجدر الإشارة إلى أن النَّفْرِي لا يذكر اللغة بصريح العبارة، إنما يوظف مصطلحين يتواتران بكثرة في نصوصه حين يريد أن يجرد اللغة من قدرتها على احتواء العلم اللدني وهما: "العبارة" و"الحرف". وهو في ذلك يتفق مع بقية المتصوفة الذين اعتبروا اللغة -وبالتالي الحرف والعبارة- عاجزة عن اختزان الحقيقة الكلية، وذلك ما دفعهم إلى أن يسقطوا وظيفتها التعبيرية النقلية ويُسحِنوها بطاقة كشفية رائية، ويلقحوها بحدوس ورموز وتلويفات قصد التعبير عن المنفلة منها، عن أسرار إلهية لا يقوى الحرف على الإخبار عنهما، لأنه في نظر النَّفْرِي موطن الريب والشك والاستفهام الذي ينطوي على الجهل.

جاء في الموقف الرابع والثلاثين قوله: «الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عني»<sup>(28)</sup>. ويؤكد ذلك في موقف بين يديه: « وقال لي لا يعرفني الحرف ولا ما في الحرف ولا ما يدل عليه الحرف. وقال لي المعنى الذي يخبر عنه الحرف حرف

والطريق الذي يهدي إليه حرف. وقال لي السوي كله حرف والحرف كله سوى... وقال لي أوصافي التي تحملها العبارة أوصافك بمعنى وأوصافي التي لا تحملها العبارة لا هي أوصافك ولا هي أوصافي ولا من أوصافك، وقال لي إن سكنت إلى العبارة نمت وإن نمت متّ فلا ب حياة ظفرت ولا على عبارة حصلت. وقال لي الأفكار في الحرف والخواطر في الأفكار، وذكرى الخالص من وراء الحرف والأفكار واسمي من وراء الذكر»<sup>(29)</sup>.

في هذا الموقف ورد المصطلحان المتعلقان باللغة وهما: الحرف والعبارة، وأكد فيه عجزهما عن استيعاب حقائق الوجود والإخبار عن المطلق، لأنه وراء الحرف والمحروف، وراء الأفكار والخواطر، وراء العبارة والسوى، فالحرف لا يخبر كل الحقائق، فكيف يخبر عن الحق المتجاوز للمادة والمفارق للمحسوسات، فهو "لا يقول إلا الأشياء أو السوى بل أن الحرف والسوى اسمان لشيء واحد"<sup>(30)</sup>، وبما أن "السوى كله حرف والحرف كله سوى"<sup>(31)</sup> على حد قول التقري، فإن الحرف كالسوى حجاب يحجب الحق عن العبد الطامح إلى مشاهدته، لذلك ينبغي الإعراض عنه وتجاوزه للدخول إلى الحضرة الإلهية، وهو ما يفسره إلحاحه على ضرورة الخروج من الحرف، يقول «وقال لي الحرف حجاب وجليه الحرف حجاب وفرعية الحرف حجاب»<sup>(32)</sup>.

لقد حدد في موقف الكشف والبهوت الصور المتعددة للسوى أو الحجب وهي خمسة في قوله: «أوقفني في الكشف والبهوت وقال لي انظر إلى الحجب فنظرت إلى الحجب فإذا هي ما بدا وكل ما بدا فيما بدا، وقال لي الحجب خمسة، حجب أعيان، وحجاب علوم، وحجاب حروف وحجاب أسماء وحجاب الجهل»<sup>(33)</sup>، والسراج الطوسي في "معناه" يعرف الحجاب بأنه «حائل يحول بين الشيء المطلوب المقصود عن طالبيه وقاصده»<sup>(34)</sup>، وهو ما يعني إخفاء وحجب الشيء عن طالبيه وقاصده، وبذلك تتجلى دلالة الحجب والإخفاء في الحرف، والتي نجدها ضمن وظائف الخزانة.





كما ورد "الحرف" في سياقات أخرى مرتبطاً بالسكر\*\*\* والإغواء تارة، وبالمرض والسقم والميل تارة أخرى. يقول في المخاطبة الثانية عشرة «يا عبد اخرج من الحرف تنتج من السحر والسحر حسب علمنا هو إظهار الشيء على غير حقيقته، وهو تعمية ولعب بالبصر، كما أنه تزيين للشيء وإخفاء للعيوب والنقائص، وهو هنا يشير إلى سحر الدنيا وغرورها، وذلك ما يؤكد قوله: الحرف فج إبليس»<sup>(35)</sup>. أي طريق إبليس الذي يؤدي إلى التهلكة والخروج عن الطريق المستقيم، لأن إبليس يزین الحياة للمرء ويغويه، ويجعله يتمسك بها وبشهواتها ومادياتها، وبالسوى الذي ينبغي الانفصال عنه.

أما عن ارتباط الحرف بالمرض والسقم والميل فقد ورد في أكثر من موضع، يقول: «يا عبد الحروف كلها مرضى إلا الألف، أما ترى كل حرف مائل، أما ترى الألف قائماً غير مائل إنما المرض الميل وإنما الميل للسقام فلا تمل»<sup>(36)</sup>. وترتبط دلالة المرض والسقم بالعجز، والحرف كذلك بالنسبة للنفري، وقضية عجزه تشمل اللغة بشكل عام، وهو عجزها عن نقل الحقائق الكلية والتعبير عن مكنون العرفان الصوفي، وهو ما يتفق عليه جلّ المتصوفة.

كما يرتبط المرض في المجاز العربي بالخداع والنفاق، «فيقال: في قلبه مرض: نفاق، ومارضت رأي فيك: خادعت نفسي فيك»<sup>(37)</sup>. وهي من خصائص وصفات "الحرف" في نظره لأن الحروف منافقة ومخادعة لا تخبر الحقيقة عن الله ولا عن نفسها، وهو ما يرتبط أيضاً بالإخفاء وحجب الحقائق بسبب العجز «الحرف يعجز أن يخبر عن نفسه فكيف يخبر عني»<sup>(38)</sup>.

نستشف مما سبق أن " الحرف " تعددت دلالاته الصوفية، وتتنوعت حسب السياقات التي ورد فيها، ولكنها في الحقيقة تصب كلها في مجرى واحد ودلالة شاملة وهي دلالة الحجب والإخفاء. ونستطيع أن نجمل الاستعارات النفرية المتعلقة به في:

الحرف خزانة . الحرف حجاب . الحرف سحر . وكلها استعارات تكشف أن دلالة الحرف عند الصوفية ترتبط أكثر بما يشير إليه الحرف، أي المسميات، أو الموجودات العينية والحاجبية كالنفس والعقل، هذه الموجودات التي تحجب الحقيقة الإلهية وتخفيها، وتحول بينها وبين طالبها وقاصدها، هذه الموجودات التي هي في الأصل من أسرار الله في كونه البديع، فكل موجود بشراً كان أو حيواناً أو نباتاً أو جماداً، ينطوي على أسرار اكتشف العلم بعضها وبقي أكثرها في طي المجهول، فقد بث الخالق تعالى في الكون أسراراً في مقدور الإنسان أن يزيل عنها حجب الجهل، ويتعرف على بعضها، لكن الأسرار الإلهية، الحقائق العلوية، لا ينالها إلا المجاهد لنفسه، المُكِدِّ والمصرِّ على سلوك طريق بدايته مشوكة وموحشة، ونهايته غير مضمونة. صحيح أن الحرف خزانة الله لأنه يحمل ويُخزّن أسرار المقدور عليها، لكنه في الوقت نفسه يحجب الأسرار الكبرى المستعصية على الخلق إلا على أهل العرفان.

بعد أن وسعنا مجال الموسوعة الصوفية، وأجبنا عن الأسئلة المطروحة لهذا الغرض، نستخلص أن هناك معينمات متشابهة بين الحرف والخزانة، وأخرى متباينة، ولكن مع ذلك نستطيع أن نكتشف التناسب الأرسطي " الخزانة بالنسبة لما تخزّن . أسرار . ثياب... كالحروف بالنسبة لما تحتوي . المسميات، فهي تخفيها تحجبها عن مؤثرات خارجية قصد الحفاظ عليها. ونتعرف بذلك على معينم متميز بخصوص "الخزانة" وهو "الإخفاء والحجب" وهو ما نتعرف عليه أيضاً في "الحرف" الذي هو في العرف الصوفي يحجب الحقائق الإلهية ويخفيها عن العامة فهي للخاصة فقط من عباده المصطفين.

**4-خاتمة:** استخلصنا بعد تحليل نماذج من الاستعارات النفرية الواردة في مؤلفه "المواقف والمخاطبات" أنها استعارات مفتوحة تحقق متعة الاستكشاف وفائدة معرفية، إذ كلما توسعنا في الموسوعة الصوفية كلما أدركنا التداخل القائم بين أثاث الكون ومفاهيمه، فاستعارات النفرية من النوع الذي يجمع بين العناصر المتباعدة ليخلق بذلك



مجالاتنا نتعرف على مشابهة ما بين أشياء متباينة، وهو ما يبين قدرته على ابتكار استعارات تضع الأشياء تحت منظار جديد، وتُظهر الثقافة وهي تتحرك في ديناميكية تولد دلالات لا متناهية، فتساهم بذلك في توسيع معارفنا وتنميتها، كما تصف العالم بصورة تجعله متناسقا وتجعل عناصره تتفاعل وتتداخل إلى درجة إلغاء الحدود الفاصلة بينها. وهو ما يكشف من جهة قوّة حدسه في إدراك مماثلات وتشابهات حتّى بين الأشياء المتباينة جدا فيما بينها، ومن جهة أخرى يرسخ رؤيته العرفانية التي تقدم الوجود على أنه بنية منسجمة تتناغم عناصره وتتجانس وتتداخل لتشكّل الوحدة التي لا تنقسم، والتي تسري في جميع الموجودات، ليقرّ بذلك بمبدأ التجانس والتماثل والتداخل بين عناصر الكون المختلفة. فحتى وإن كانت الاستعارات النّورية تحبل بالمخالفات على مستوى السطح، فإنها في العمق ليست إلا وجوها لبعد واحد، فهي تتلاقى في نقطة مركزية تتجاوز عوالم الحس، وعند هذه النقطة تسقط الاعتبارات، وتتجرد الأشياء من خاصياتها.

## 5- قائمة المراجع:

- 1- أبو نصر عبد الله السراج: اللّمع في تاريخ التصوف، ضبط وتصحيح كامل مصطفى الهنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001.
- 2- إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا، ج1، دار الصفاء، بيروت، د.ت.
- 3- أومبرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللّغة، تر أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2005.
- 4- أومبرتو إيكو: التّأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ط1، تر وثق سعيد بنكراد، المركز الثقافي العربي، المغرب، 2000.
- 5- رشيد الإدريسي، سيمياء التّأويل، الحريري بين العبارة والإشارة، شركة النشر والتوزيع - المدارس -، الدار البيضاء، 2000.

- 6- سعيد الحنصالي: الاستعارات والشعر العربي الحديث، ط1، دار توبقال للنشر، المغرب، 2005.
- 7- عبد الرزاق القاشاني: اصطلاحات الصوفية، تح وتغ: محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية للكتاب، 1981.
- 8- علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2003.
- 9- محمد بن عبد الجبار النثري: المواقف والمخاطبات، تح آرتر أريري، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985.
- 10- محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، 2000.
- 11- محمد عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001.
- 12- محمد مفتاح: مجهول البيان، ط1، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1990.
- 13- مساعد خميسي: منزلة الحروف في فلسفة محي الدين بن العربي الصوفية، مجلة الخطاب الصوفي، ع1، جامعة الجزائر، 2007.
- 14- يوسف سامي يوسف: مقدمة للنثري، دار الينابيع، دمشق، 1997..

### الهوامش والإحالات.

\*النثري: هو محمد بن عبد الجبار النثري، أحد المتصوفة الكبار، عاش في القرن الرابع الهجري، وهو صاحب مذهب الوقفة أمام الله، أشهر مؤلفاته "المواقف والمخاطبات

\*\*نسبة إلى فورفوربوس، وهو من أهم من أوضح أقوال أرسطو في الكليات، كان له تأثير كبير في منطقة العصور القديمة من اليونان والإسلاميين، وقد صارت شجرته في التحديد - الشجرة الفورفوربية- موضع تنقيح وتهذيب فيما بعد.



- 1- ينظر: أومبرتو إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، تر أحمد الصمعي، ط1، المنظمة العربية للترجمة، مركز دراسات الوحدة العربية، لبنان، 2005، ص 14 - 17.
- 2- سعيد الحنصالي: الاستعارات والشعر العربي الحديث، ط1، دار توفال للنشر، المغرب، 2005، ص71.
- 3- ينظر: رشيد الإدريسي، سيمياء التأويل، الحريري بين العبارة والإشارة، شركة النشر والتوزيع- المدارس-، الدار البيضاء، ص36-37.
- 4- ينظر: إيكو، التأويل بين السيميائيات والتفكيكية، ص 75.
- 5- محمد مفتاح: مجهول البيان، ط1، دار توفال للنشر، الدار البيضاء، 1990، ص 30 . 35.
- 6- إيكو، نفسه، ص 309
- 7- إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ص 309
- 8- نفسه ، ص283-284.
- 9- ينظر: إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ص 288.
- 10- ينظر: إيكو: السيميائية وفلسفة التأويل، ص 302 . 304.
- 11- محمد بن عبد الجبار النّفري: المواقف والمخاطبات، تح آرتر أريبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، 1985، المخاطبة 23، ص 178.
- 12- المواقف، المخاطبة 52، ص 205.
- 13- المواقف، المخاطبة 12، ص 127.
- 14- نفسه، موقف بين يديه، ص ص 90 . 91.
- 15- إيكو: السيميائية وفلسفة اللغة، ص 17.
- 16- ينظر: رسائل إخوان الصفا، ج1، دار الصفاء، بيروت، د ت، ص277.
- 17- ينظر، إيكو: نفسه، ص 18.
- 18- محمد عبد القادر الرازي: مختار الصحاح، ط1، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2001، ص 64 . 65.
- 19- ينظر: محمود بن عمر الزمخشري: أساس البلاغة، دار الفكر، بيروت، 2000، ص122.
- 20- علي بن محمد الجرجاني: كتاب التعريفات، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، 2003، ص ص 67 . 68 .

- 20- عبد الرزاق القاشاني: اصطلاحات الصوفية، تح وتغ: محمد كمال إبراهيم جعفر، الهيئة المصرية للكتاب، 1981، ص 57 . 58.
- 21- الرازي: مختار الصحاح، ص 82 . 83.
- 22- ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، ص 161 . 162.
- 23- المخاطبة 53، ص 207.
- 24- موقف الوقفة، ص 10.
- 25- موقف التقرير، ص 37.
- 26- موقف محضر الحرف، 118 . 119.
- 27- موقف بين يديه، ص 91.
- 28- موقف "ما لا يقال"، ص 60.
- 29- موقف بين يديه، ص 90 . 91.
- 30- يوسف سامي يوسف: مقدمة للنفري، دار الينابيع، دمشق، 1997، ص 59.
- 31- موقف بين يديه، ص 90 . 91.
- 32- موقف بين يديه، ص 90 . 91.
- 33- موقف الكشف والبهوت، ص 108.
- 34- أبو نصر عبد الله السراج: اللّمع في تاريخ التصوف، ضبط وتصحيح كامل مصطفى الهنداوي، ط1، دار الكتب العلمية، لبنان، 2001، ص 301.
- \*\*\* وقد ربط بعض المتصوفة كابن عربي علم الحروف بالسيمياء (السكر)، وهم بصدد الحديث عن الإنسان الذي يعتمد على الجن قصد إمكانية التصرف في الطبيعة وتأثير الأسماء والحروف. ينظر في هذا الصدد مساعد خميسي: منزلة الحروف في فلسفة محي الدين بن العربي الصوفية، مجلة الخطاب الصوفي، ع1، جامعة الجزائر، 2007، ص 151.
- 35- موقف المحضر والحرف، ص 117.
- 36- المخاطبة 52، ص 205.
- 37- ينظر: الزمخشري: أساس البلاغة، ص 590.
- 38- موقف ما لا يقال، ص 60.